



الصفويون والكرد (٢-٢)

د. فرست مرعي

إسماعيل الصفوي أن يغلب خصمه (فرخ يسار) في قرية كلشان في ولاية شماخي الواقعة في منطقة القوقاز ويقتله، وفي رواية أن يأسره، حيث وضعه في قدر كبير وأمر أتباعه بأكله^(١). بعدها استولى على مدينة (باكو) عاصمة جمهورية أذربيجان حالياً. ولما سمع (ألوند ميرزا) بهذه الأخبار اتحد مع سلطان مراد على أمل القضاء على إسماعيل، ولكن الأخير استطاع دحرهما في المعركة التي جرت بينهما في (شور) قرب نجحوان أوائل سنة ٩٠٧هـ / ١٥٠١م وقتل نحو ثمانية آلاف من تركمان قبلية الآق قوينلو، ولذا ألوند ميرزا بالفرار إلى ديار بكر ومات فيها سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٤م. وبعدها دخل إسماعيل الصفوي مدينة تبريز مظفراً

بدأ الشيخ إسماعيل الصفوي نشاطه العسكري في الولايات الشمالية من دولة الآق قوينلو^(١). وكان لديه أكثر من سبب يدفعه للبدء بهذه الجهات إن حكام هذه الولايات أصبحوا الآن بعيدين عن المراكز الرئيسية لقبيلة الآق قوينلو (الخروف الأبيض) في بغداد وديار بكر، كما أن استقلال (ألوند ميرزا) بهذه الجهات من شأنه أن يطلق له العمل دون أن يواجه ضغطاً فعالاً من قبل الأمراء المنافسين الذين سيسرهم التخلص من أحد منافسيهم^(٢). ويجعل المؤرخ والمفسر محمد علي الشوكاني من رغبة الشيخ إسماعيل في الثأر لأبيه وجده الذين قتلوا في مدينة شروان علي يد حكامها السبب في البدء بهذه الجهات. فقد استطاع

وفي سنة ١٥٠٨ كان الشاه إسماعيل قد أعد العدة وهاجم مدن مرعش وألبستان إثر تحالف عقده (مراد بك) زعيم الآق قوينلو مع علاء الدولة (ذو القدر)، للحوؤل دون امتدادات الشاه إسماعيل الصفوي والعمل سوية لإنهاء غائلته^(٩).

لكن الشاه ضمن اهتماماته الدبلوماسية أوضح للحلف عزمه على القتال، وبالفعل تمكنت قواته من دحر القوات المتحالفة، ولكي يتقي آثاره حفيظة السلطان الملوكي (قانسوه الغوري) في مصر - كون هذه الأمانة تتبع لنفوذ دولته، وحفيظة السلطان العثماني، الذي كان يعتبر هذه الأمانة ضمن مجال نفوذه المتنافس عليه مع دولة المماليك ١٥٠١ - ١٥١٦م مبيناً أن أعماله العسكرية في مرعش وألبستان لم تكن سوى احتياطات أمنية، وكذلك أرسل سفارة أخرى إلى استنبول، كانت مهمتها كتلك التي أرسلها إلى القاهرة^(١٠).

بعد هذه الموقعة وفرار كل من مراد بك زعيم الآق قوينلو، وعلاء الدولة زعيم إمارة ذي القدر من وجه القوات الصفوية، فتحت أبواب مدينة ديار بكر، فدخلها الشاه إسماعيل وقواته ثم غادرها بعد أن عين عليها (محمد خان استاجلو) زعيم قبيلة استاجلو التركمانية نائباً عنه في حكمها. ثم أن الشاه أمضى شتاءه في مدينة خوي الكردية^(١١). وفيها أعد العدة لاجتياح ما تبقى من كردستان والعراق آخر معاقل قبيلة الآق قوينلو^(١٢).

وقد دشن العهد الصفوي (١٥٠٢ - ١٧٣٦م) بداية جديدة للتاريخ الكردي في إيران تشغل الفواجع والأحداث الدموية معظم صفحاته على حد تعبير المؤرخ الكردي (كمال مظهر احمد)^(١٣)، فإن مؤسس الدولة الصفوية إسماعيل الصفوي (١٤٨٧ - ١٥٢٤م) كان يرفض كل - ما هو كردي - بحيث

وأعلن نفسه شاهاً فيها عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م^(١٤). واتخذ من تبريز عاصمة له، وبعد دخوله تبريز أمر بأن تقرأ الخطبة باسم الأئمة الاثني عشرية، وأن تسك على العملة عبارة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله).

ثم يتبع ذلك ذكر اسم السلطان^(١٥). وأقر مذهب الشيعة الاثني عشرية مذهباً رسمياً لدولته، وارتدى علامة هذا الرسم تاجاً من السقرلاط الأحمر (الديباج الأحمر) بعد أن خلع الملابس الخاصة بالتصوف. وبعد هذا النصر جرد الشاه إسماعيل جيوشه على عراق العجم وقاتل مراد بك زعيم الآق قوينلو خلف الوندبك على مقربة من مدينة همدان، والحق به الهزيمة، فلما فر مراد إلى شيراز أتاه الشاه إسماعيل يتعقبه وفي ربيع الأول ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م دخل هذه المدينة، وسقطت نتيجة هذا العمل أسرة الآق قوينلو تماماً في الهضبة الإيرانية، وضمت عراق العجم وأقاليم فارس وكرمان إلى دولة الشاه إسماعيل^(١٦). وعلى أثر انسحاب السلطان مراد بن يعقوب إلى العراق تقدمت الجيوش الصفوية فاحتلت مراكز الآق قوينلو داخل الهضبة الإيرانية تباعاً وهي أصفهان وشيراز وهمدان.

التوسع الصفوي في العراق وكردستان

في سنة ١٥٠٦م غادرت القوات الصفوية تبريز واتجهت إلى إقليم كردستان الذي يفصل الهضبة الإيرانية عن إقليم العراق العربي وعن الأناضول، بمحاولة للاستيلاء عليه، لكنها فشلت من النيل منه لوقوف (صارم بن سيف الدين المكري) بوجهها^(١٧)، لكن ذلك لم يمنع من أن يخضع عدد من أمراء كردستان طوعاً وكرهاً للنفوذ الصفوي^(١٨).

الأخير إستعادة ما فقده من المناطق الكردية، جوبه بمقاومة شديدة أينما حل، مما كلف الكرد خسائر جسيمة، فأُن حصار قوات الشاه إسماعيل لمدينة ديار بكر الذي دام أكثر من عام واحد، أودى بحياة حوالي ١٥ ألف من سكانها^(٨).

واستمرت هذه المجازر طيلة العهد الصفوي، فعندما زحف الشاه طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦م) سنة ١٤٥٤م على كردستان فأنه ((لم يترك في الطريق الذي سلكه عامراً إلا دمره)). وأعاد جيوشه الكرة مرة ثانية على كردستان في سنة ١٤٥٥م لتدمر من المدن الكردية: بدليس، أرحيش، موش، وأخلاق، وغيرها ((تدميراً كاملاً، وتقتل من أهاليها مقتلة عظيمة)) (١٨)، ليكمل رئيس حرسه (أمير سلطان روملو) أحد قادة القزلباش من بعده عمله ((كان أفضع وجه، وأشنع صورة)) فقد ارتكبت القوات الصفوية ((من الأعمال الوحشية وضروب القسوة والفظاعة، ما أنسى الناس هول الأعمال البربرية التي اجتاحتها في هذه البلاد كل من هولوكو وتيمورلنك)). وفي يوم واحد قتل رجال الشاه طهماسب ٤٠٠ من أبناء عشيرة دنبلي الكردية، ونفذوا حكم الموت بكل دنبلي كان يعمل في بلاط الشاه، مما أجبر من تبقى على قيد الحياة من الكرد الدنجليين على اللجوء إلى داخل الأراضي العثمانية^(٩).

وعندما اجتاحت الاضطرابات الدولة الصفوية أيام حكم الشاه إسماعيل الثاني (١٥٧٦ - ١٥٧٧) والسلطان محمد خدابنده (١٥٧٧ - ١٥٨٧م)، واستطاعت الدولة العثمانية احتلال أجزاء كبيرة من أذربيجان، أعلن الكرد تعاطفهم مع العثمانيين رفقاء المذهب السني، وعندما تولى الشاه عباس الكبير (١٦٨٧ - ١٦٢٩م) الحكم استطاع طرد

أنه لم يتحمل حتى أولئك الأمراء من الكرد الذين أتوه إلى بلدة (خوي) لتقديم الولاء له، فأمر بإلقاء القبض عليهم جميعاً، وعين مكانهم ولاة من أتباعه القزلباش^(١٠)، وفي تعليق له على تلك الحقبه يقول المؤرخ الكردي المعروف محمد أمين زكي ما نصه: ((وكان عهد الشاه إسماعيل وسيره في الكرد، مثل عهد تركمان الآق قوينلية عهد ظلم وعدوان شديدين، لأن الكرد كانوا من أهل السنة فكان لا يأمن جانبهم ولا يثق بهم، بخلاف التركمان الذين كانوا من غلاة الشيعة والرافضة فلماذا لم يكن يدع فرصة تمر من غير أن ينتهزها ويلحق فيها بالأكراد أذى كبيراً. فمن ذلك أنه قدم مرة إلى بلدة خوي فتقدم إليه أحد عشر أميراً من أمراء الكرد مقدمين له الطاعة والخضوع، فما كان منه إلا أن ألقى القبض جميعاً - على خلاف ما كانوا يأملون منه - وزجهم في السجن وعين بدلهم ولاة القزلباشية في إماراتهم الموروثة. فكان من ضمن هؤلاء الأمراء المنكوبين (الملك خليل) حاكم (حصن كيف)^(١١) وزوج أخت الشاه إسماعيل نفسه، حيث لبث في سجن تبريز ثلاثة أعوام كاملة، إلى أن نجا منه على أثر انكسار الشاه أمام السلطان سليم العثماني في معركة جالديران الشهيرة في ٢٣ آب (١٥١٤م))^(١٢).

ومن جانب آخر فإن الدولة العثمانية عرفت كيف تستغل الصراعات التي جرت بين الأمراء الكرد والدولة الصفوية، حيث وقفت إلى جانب الكرد في صراعهم المصيري ضد الصفويين وتجاوزاتهم. لذلك سرعان ما ثارت كردستان ضد الحكم الصفوي في كافة أنحاء كردستان الشرقية الوسطى، حيث تمكن الثوار الكرد من طرد الحكام الصفويين المواليين للشاه إسماعيل، وعندما حاول

الأوزبك السنين، وبهذا يتخلص من كليهما معاً. ولم يكتف الشاه عباس بما فعله معهم حتى الآن بل فرض عليهم ضرائب باهظة، ووضعهم تحت رقابة صارمة، وحكم حديدي، كي لا يتيح لهم أي فرصة للخروج عليه ومعاودة الثورة ضده. فقد كانت قوات القزلباش الصفوية قد هاجمت سنة 1608م على الأكراد البرادوستيين مستهدفة قلعتهم الحصينة (قلعة دمدم) الواقعة جنوب مدينة أورمية، إنطلاقاً من التعصب المذهبي المقيت على حد تعبير المؤرخ الكردي (حسن الجاف)^(٢٢)، وقد تصدى الثوار الكرد للجيوش الصفوية وجرت أثر ذلك معارك طاحنة دافع فيها الكرد عن ديارهم وقلاعهم دفاع الأبطال المستميتين، أصابوا خلالها الجيش الصفوي بخسائر باهضة، وكان لزعيمهم (أمير خان يكديست) القدرح المعلى في هذا المضمار، ولم يترك الكرد القلعة لهؤلاء الاعجاب إلا بعد أن أبعادوا عن بكرة أبيهم إبادة تامة، لتتحول هذه المأساة إلى ملحمة بطولية أشاد بها المستشرقون وتغنى بها الأدباء والشعراء^(٢٣)، ولا زالت تسري في التراث والوجدان الكردي سريان النار في الهشيم، ومما له مغزاه أن المناطق الخاضعة للنفوذ الصفوي شهدت في الحقبة ذاتها سلسلة من الانتفاضات الشعبية لتلك التي وقعت في كردستان من حيث الدوافع والوقائع، منها: انتفاضة طالش عام 1592م، وانتفاضة عربستان عام 1596م، وانتفاضة جورجيا الشرقية عام 1623 - 1624م، وفي انتفاضة أذربيجان بقيادة كوراوغلو عام 1610 - 1630^(٢٤).

وبهذا يتبين لنا بان الكرد قد تعرضوا الى عمليات ابادة جماعية وتهجير قسري طيلة العصر الصفوي على يد معظم سلاطينهم لا لسبب الا للتعصب الطائفي البغيض المقيت على حد

العثمانيين من أذربيجان، صمم على الانتقام هن هؤلاء الكرد السنين وتشريدهم متى سنحت الفرصة لذلك فقد توجه بنفسه على رأس جيش كبير إلى مدينة خوي، ومن هناك زحف على منازل عشيرة محمودي الكردية التي دافع رئيسها مصطفى بك عن قلعة ماكو وبسك ببسالة^(٢٥)، ولكن الجيش الصفوي ((عات في تلك البلاد فساداً، وغالى في النهب والسلب والتدمير، وقتل من الأهالي مقتلة عظيمة))، نقل منهم بصفة آلاف من النساء والأطفال الذين عوملوا معاملة الأسرى الى منطقة خراسان الشرقية، كما يقر مؤرخ الشاه عباس الشهير (إسكندر منشي)^(٢٦).

وقد حاول الكرد من أبناء عشيرة مكري الضارية استعطاف الشاه عباس بعد أن أمنهم على حياتهم، وتقدم زعيمهم قباد خان ومعه مائة وخمسون فارساً إلى الشاه عباس الموجود في مدينة مراغة في ذلك الوقت، ذلك لأظهار خضوعهم وتقديم فروض الطاعة للشاه، ولكن ما أن وصلوا إلى بلاطه حتى فتك بهم جميعاً^(٢٧).

ولم يكتف الشاه عباس بالتنكيل بهم في ديارهم، وإنما أقدم على إتخاذ خطوة أشد وأقسى، وهي تهجير عدد كبير منهم إلى مناطق أخرى بعيدة عن ديارهم بألاف الكيلومترات ليفقدوا الحماس للأرض التي يعيشون عليها، فتخبوا نار ثورتهم، ويعيشون في ذلك الغربية والاستكانة، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية، ومعهم كل أمتعتهم ووسائل معيشتهم وقطعان ماشيتهم إلى شرق خراسان، ليكونوا فاصلاً بشرياً بين الإيرانيين وبين الأوزبك فيما وراء النهر^(٢٨)، ولعله أراد بهذا الإجراء أن يجعل من هؤلاء الكرد السنين أول من يتلقون ضربات

- جميل ومصطفى جواد، (مطبعة شفيق، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٢)، ص ٣١٢ هامش ٢٠.
- ٤- عباس اقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة القاهرة ١٤١٠ - ١٩٩٠م، ص ٦٤١.
- ٥- بديع جمعة: الشاه عباس الكبير، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٩٠، ص ١٠.
- ٦- عباس اقبال: المرجع السابق، ص ٦٤١ - ٦٤٢.
- ٧- شرف خان البديسي: شرفنامه، ترجمة محمد علي عوني، مراجعة يحيى الخشاب، ج١، ص ٢٨.
- ٨- المصدر نفسه، ج١، ص ٩٨، ١٠٤، ١٢١.
- ٩- مرتضى أفندي نظمي زاده: كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، النجف ١٩٧١، ص ١٢٨.
- ١٠- عباس إسماعيل صباغ: تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ - ١٩٩٩، ص ٤٦ - ٤٧.

- ١١- نظام الدين مجير شيباني: تشكيل شاهنشاهي صفيوية وأحياء وحدت ملي، تهران ١٣٤٦ هـ. ش، ص ١٠٨.
- ١٢- عباس صباغ: المرجع السابق، ص ٤٧، نقلًا عن فريدون بك: منشآت السلاطين، استنبول ١٣٧٥هـ، ٢٤٥.
- ١٣- دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، الأمانة العامة للثقافة والشباب، بغداد ١٩٨٥، ص ٢٢٩.
- ١٤- رشيد ياسمي: كرد و بيويستكي نزادى وتاريخي أوى، تهران ص ٢٠٢.
- ١٥- حصن كيف: هي مدينة حسن كيفا الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة في الجزء الأوسط من كردستان تركيا، وهي مدينة تاريخية كانت عاصمة لأحدى الإمارات الأيوبية الكردية.
- ١٦- خلاصة تاريخ كرد كردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمة: محمد علي عوني، الجمعية الكردية اللبنانية - بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، ص ١٦٠ - ١٦١.

تعبير المؤرخين الكرد الرواد من امثال: شرفخان البديسي، ومحمد امين زكي، ومن المعاصرين: كمال مظهر احمد، وشكور مصطفى ونوشروان مصطفى وغيرهم. لذلك فان تقديم بحوث ودراسات عن شرق كردستان (كردستان الايرانية) من شأنه ان يكشف النقاب ويميط اللثام عن المعانات اليومية والعذابات المجحفة بحق الكرد البائسين الذين لايزالون يتعرضون الى اضطهاد عرقي وتعصب طائفي مقيت الى وقت كتابة هذه الاسطر، رغم تبجح بعض الزعمات السياسية والفكرية الكردية خارج ايران! الى ان الكرد في ايران يعيشون في وضع جيد، ناسين حملات الاعتقال والنفي والهجرة، وقصف كردستان العراق على مدار السنة وهذا ربما يعود الى علاقاتهم الخاصة مع قادة الجمهورية الاسلامية الايرانية!

المصادر والمراجع والهوامش

- ١- تمثلت السيطرة التركمانية على العراق وكردستان في قيام دولتي القرة قوينلو (الخروف الأسود) والآق قوينلو (الخروف الأبيض)، وهما قبليتان تركمانيتان، حكمت الأولى العراق وكردستان وأجزاء من إيران والأناضول من ١٤١٠ - ١٤٦٨م، وحكمت الثانية من ١٤٦٨ - ١٥٠٨م.
- ٢- عماد الجواهري: صراع القوى السياسية في المشرق العربي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - جامعة القادسية، ١٩٩٠، ص ٥٣.
- ٣- محمد علي الشوكاني: البدر الطالع في محاسن ما بعد القرن السابع، (القاهرة ١٣٤٨هـ) ج ١ ص ٢٧٠؛ وفي رواية أخرى أن شروان شاه قاتل أبيه وجده جيء به أسيراً، فأمر أن يضعوه في قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه، ففعلوا كما أمر وأكلوه، وكان ذلك أول فتوحاته. ينظر: ريجارد كوك: بغداد مدينة السلام، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد

- ١٧- كمال مظهر: دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، ٢٣٠.
- ١٨- حسن الجاف: الوجيز في تاريخ إيران- دراسة في التاريخ السياسي، دار ثاراس، أربيل، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م، ج٣، ص ؛ محمد أمين زكي: خلاصة تاريخية، ص ١٧٤.
- ١٩- كمال مظهر: المرجع السابق، ص ٢٣٠.
- ٢٠- بديع محمد جمعة: الشاه عباس الكبير، ص ٩٢ - ٩٣ نقلاً عن ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج٨ ص ٣٧٢ - ٣٧٣.
- ٢١- إسكندر بك تركمان نشئ (١٥٦٠ أو ١٥٦١ - ١٦٢٤م) مؤرخ الشاه عباس الأول، ومؤلف الكتاب الشهير (تاريخ عالم آراء عباسي) باللغة الفارسية. للكتاب أهمية تاريخية كبيرة لأن صاحبه كان شاهد عيان لعظم الوقائع التي دونها، فقد رافق الشاه في غزواته وترحاله. سجل معظم أحداث كردستان في عهد الشاه عباس بأسلوب غير ودي. ينظر كمال مظهر: المرجع السابق، ص ٢٣١، هامش ١٥.
- ٢٢- محمد أمين زكي: خلاصة تاريخية، ص ١٨٢، كما أن مصطلح (قتلوعام) ظهر في هذه الحقبة وبقي مدلوله ليشير في العصر الحديث إلى ما يسمى بالإبادة الجماعية (الجينوسايد)، أي ان الكرد تعرضوا الى الجينوسايد في القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد السلاطين الصفويين.
- ٢٣- محمد أمين زكي: المرجع السابق، ص ١٨٦.
- ٢٤- الوجيز في تاريخ إيران، ج٢، ص ٤١.
- ٢٥- ينظر بهذا الصدد: شهداء قلعة دمدم لمصطفى صالح كريم ؛ جاسم جليل: بطولة الكرد في ملحمة قلعة دمدم، ترجمة شكور مصطفى، تقديم ومراجعة عز الدين مصطفى رسول.
- ٢٦- كمال مظهر: المرجع السابق، ص ٢٣١، ومما تجدر الإشارة أن الباحث الإيراني ناصر محسني يعتقد بأن الصفويين استعملوا سياسة الخشونة والقمع مع الأكراد مما أدى إلى ظهور ثورات وانتفاضات كردية ضد النظام الصفوي، ينظر: جغرافياى طبيعي واقتصادي وتاريخي وسياسي كردستان، تهران ١٣٢٧ خورشيدي، ص ٢٢ - ٢٤.